المسكوت عنه في رحلة الحج إلى بيت الله الحرام للحاج ناصر الدين ألفونس إتيان ديني والحاج سليمان بن إبراهيم باعمر 1347ه-1929م

The Unsaid in thePilgrim's Journey of HadjNaser-din Alphonse Etienne Dinet and Hadj SlimaneBen Brahim Ba-amar 1347h-1929g

* بلحارت بلقاسم

belkacem Belharet

كلية الآداب واللغات جامعة أكلي محند أولحاج البويرة/ الجزائر

University of Bouira/ Algeria

تاريخ الإرسال:2018/11/20	تاريخ القبول: 2019/09/11	تاريخ القبول: 2019/09/25

ملخص البحث

أثار انتباهنا في هذا النص الرحلي بعض المسكوت عنه، لأنه في نظرنا بإمكانه أن يضيء للقارئ كثيرا من جوانب هذه الرحلة: من حيث الأشخاص ومواقفهم وأمكنتهم وأزمنتهم.

فكلّ مسكوت عنه، يمثل مدّا معلوماتيا وصبغة جمالية لعملية السّرد. فعليه يبقى القارئ متعطشا لاستحضار هذه الفراغات، وهذا ما حاولنا إثارته على الأقل في تخصصنا "بلاغة ونقد".

الكلمات المفتاح: الرحلة؛ المسكوت عنه؛ إتيان ديني؛ القارئ.

Summary :

Our interest is attracted in this travelling story to the information that were hidden (unsaid) because we believe that this information can enlighten the reader on many aspects related to the characters and their attitudes.

All of the unsaid information could have offered a larger range of knowledge regarding the story and a colorful a esthetic which would hook the reader and would satisfy his rhetorical stale thirst, and this is what we have tried to accomplish in our specialty "Eloquence and Critique".

Key words: Not told about; the journey; Etienne Dinet; the reader.

* بلقاسم بلحارث. Belharetbelkacem1015@gmail.com

تمهيد:

لا أدري كيف شدّني الفضول لأعود مرة أخرى لتصفح وأعيد القراءة للرحلة المتميزة للفرنسي إتيان ديني*. حيث خرج فيها من ربوع مدينة بوسعادة أين كان يقيم وذلك سنة 1929، ميمما وجهه شطر البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج بعد أن أسلم عام 1913 بالجزائر العاصمة، وقد رافقه في هذه الرحلة الميمونة رفيقه ومرشده سليمان بن إبراهيم باعمر وزوجته "وهما الشخصان اللذان رافقاه في رحلته الحجية"[1]. وللعلم فإن هذه الرحلة كانت موضوع أطروحة قدمتها لنيل شهادة الماجستير –تخصص بلاغة ونقد أدبي– بجامعة أكلي محند أولحاج بالبويرة (كلية الآداب واللغات) سنة 1914، تحت إشراف الأستاذ القدير أحمد حيدوش.

ولعلّ ما استوقفني وأثار انتباهي هذه المرة وأنا أعيد القراءة لهذا النص الرحلي، عديد من مواقف حُجب فيها كثير من التفاصيل وهي في الأساس أشبه بمصابيح، علّها تضيء كثيرا من نقاط الظل، وتشفي غليل القارئ وتبدد حيرته، فلهذا أدرجتها ضمن المسكوت عنه.

ومن هذا المنطلق سأحاول التركيز على هذا الأهم المغيّب، تاركا البقية إن وجد لدراسات نقدية لاحقة من طرف أقلام أخرى قد تكون أكثر مني حاسة للنقد أو ربما أكثر مني جرأة على البوح. والنقد أصلا مسار لا يعرف التوقف على الإطلاق. وارتأيت أن أدرج كلّ مسكوت عنه تحت العنوان الذي يرافقه في النّص الأصلي.

أولا: الرحلة والرفيق

ولعلّ أول موقف أشير إليه مسألة "الرفيق في الرحلة" فالقارئ لهذا النص يتلمس لأول وهلة الاهتمام البالغ الذي أولاه إتيان ديني لرفيقه ومرشده سليمان بن إبراهيم، حيث تتبع خطواته وسلوكاته وتصرفاته أثناء الرحلة بدقة متناهية. حتى بدا وكأنه بطل الرحلة. وهذا جانب إيجابي لا يختلف فيه اثنان غير أنه من جانب آخر غفل عن رفيق آخر لا يقل أهمية عن الأوّل وهو زوجة صديقه إذ عزف عن الإلتفاتة إليها، فغابت تماما عن هذا النص الرحلي رغم الاعتراف بأنها عنصر مرافق "كنا ثلاثة مسافرين: المؤلفين والحاجة بنت عيسى حرم الحاج سليمان بن إبراهيم"[2] فأين هذه الحاجة في الرحلة؟ وهل يعقل أن تهمش ويسكت عنها وهي التي كابدت معهما عناء السفر وويلات الطريق وخطورة المسالك والمشي في المجهول بين شعاب الفيافي التي كانوا يمرون عليها لأول وهلة؟ وأيّ طريق في هذه الحقبة الزمنية؟ إنّ الطريق في النص الرحلي عنصر مثير "الطريق

توّلد المسافة والمسافة تخلق الانتباه والدهشة...، بهذا المعنى تصبح الطريق مسلكا نحو الافتنان والغواية"[3] والأدهى من ذلك كثرة قطاع الطرق الذين ما فتئوا يغيرون على المارين من هنا، فيسلبونهم أمتعتهم وزادهم وربما اعتدوا عليهم أيضا.

ألم يكن من الأجدر أن تولى الأهمية القصوى لهذه المرأة ليس لكونها أنثى فحسب بل لأنها تجرأت على مرافقة شخصين رجلين في مغامرة ذات طابع رجولي محض. وفي وقت عزّ فيه ظهور المرأة والسماع لصوتها وما بالك بجرأتها وتحديها بهذا المستوى الرفيع من المجابهة والثبات والإصرار، فما الذي أسكت إتيان ديني عن تقديم بعض التفاصيل عن هذا الرفيق المتميز وبكثافة وأمانة، فلعلّ ذلك يشبع فضول القارئ، الذي خيّب أفق الانتظار عنده وأطفأ فيه لحظات الإنبهار والانجذاب والإغراء.

ولا يخوننا شك في أنّ هذه المرأة عانت الويلات وتجشمت الخطورة، "ألف وخمس مائة حاج محملين بالحقائب والرزم الهائلة ينسحقون بها فيدهسونها ولسوء الحظ حشرت زوجة الحاج سليمان بين حقيبتين فكادت روحها تزهق. انتشلها زوجها من وسط الحشود وأبعد الأسلاك الشائكة ثم ألقى بها من جانب آخر بمساعدة موظف مصري هزّته الرأفة"[4].

فمن خلال هذا المشهد الوحيد الوارد في الرحلة، فإن هذه المرأة الحاضرة الغائبة أبهرت المسافرين بحضورها وتحديها، لكن القارئ لا زال يستفهم عن بؤر أخرى ظلت في عداد المسكوتات! إنّ ذكر المرافق في النص الرحلي ضروري لكونه يثري كثيرا من جوانب الرحلة ويساهم في تقديم المدّ المعلوماتي عن ظروف السير والتنقل، وينير المكان والزمان ويقرب أيضا المواقف المصاحبة لظروف الرحلة.

ففي هذه السفريات يحدث كثير من الوقائع متوقعة وغير متوقعة إذ لابد من ذكرها وتقديمها للقارئ لتنويره أكثر بحيثيات السفر إلى البقاع المقدسة في هذا الظرف الزمني الصعب، حيث يكون المشي على الأقدام مطلبا للمسافرين، إضافة إلى قطاع الطرق الذين ظلوا الهاجس الأكبر للحجيج في رحاب الدروب والشعاب الموحشة، قد يلقى الواحد فيها حتفه بكل سهولة، ولهذا كان المرافق هو وحده الأنس والملاذ. "وباعتبار الآخر عنصرا مثيرا داخل الرحلة وباعثا على الحسّ المعلوماتي وعلى المغامرة والحكي"[5]. فلماذا يحرم القارئ من هذه المحطات السردية التي كان بوسعها أن تكون مادة إعلامية من خلال إبراز هؤلاء المرافقين بمختلف مواقفهم وجنسهم وقدرة

تحملهم علما أن المرافق في أدب الرحلة عامل مثير، سيما إذا كان دائم الحضور. "ويستلزم هذا التعريف للمرافق أن يكون ممّن ينتقل مع الرحالة لا ضمن مجموعة تلتقي بالرحالة في محطة من محطات الرحلة"[6]. ولا يخوننا شك من أنّ زوجة سليمان بن إبراهيم كانت ممّن رحلوا لا ضمن مجموعة التقى بهم الرحالة أو شخصا زائرا أو عابرا. أم أنّ حضور زوجها بن إبراهيم أعفاها من الظهور؟ لكن هذا في اعتقادنا لا يخدم الأمانة العلمية من جهة، يسيء إلى الشخصية من جهة أخرى، فكل شخصية لها حضورها المميز، ولها دورها وتأثيرها، قد تختلف عن الآخر في كثير من المواقف.

وقبل أن نغادر هذا المشهد، لفت انتباهنا تصرّف آخر، حرّك فينا الحيرة والتساؤل، حينما ذكر المؤلف تعرض هذه المرأة إلى خطر الدّهس والسقوط بين الرجال، ثم أشار إلى تدخل أحد المصريين لمساعدة زوج هذه المرأة، بعد أن هزته الرأفة فما الذي أقعد ديني عن مدّ يد العون لمرشده وصديقه ورفيق دربه، وبقي أشبه بمتفرج على مثل هذه الواقعة، وكأن الأمر لا يعنيه! حتى وصل الأمر إلى تَدَخَّلَ مصري أنقذ الموقف في عين المكان، وراح يقدم يد العون لزوج هذه المرأة. فهل كان إتيان ديني منشغلا في هذه الآونة بأمر آخر أكثر أهمية من هذا الحادث أم كان يتسلل بين الحجيج لا يريد الظهور، لكونه أوروبيا وقد توجّس بعض الخوف في المكان، أو لدواعي أخرى كان بودنا أن نعرفها وإذ ذاك تنطفئ جذوة السؤال والحيرة، ويتضح كثير من معالم هذه الرحلة ويتعرف القارئ على كل تصرفات الشخصيات، سيما عند إتيان ديني.

ثانيا: معاملة الحجيج

ومن المقاطع المسكوت عنها أيضا وهي لا تقلّ أهمية عمّا ذكر سالفا، ذلك التفريق الحاصل بين الحجيج من حيث كيفية إيوائهم وظروف استقبالهم. "وكانت الطوابق السفلية هي الأقل تحبيذا لأن الهواء والضوء ينقصانها وهي مخصصة للحجاج الفقراء، مزدحمين بداخلها، بعضهم مكدس على بعض ولا أثر فيها لأسباب الراحة"[7].

هنا يطرح القارئ سؤالا جوهريا وهو: لماذا لم يذكر صاحب الرحلة أسباب هذه التفرقة بين زوّار بيت الله، وهل يعقل أن يفرق بينهم في هذا المكان الروحاني الذي يعبق بالقداسة؟ ومن المفترض أن تسود بين جنباته مظاهر العدل والمساواة، والكلّ جاء ليقف بين أيدي الرحمن مستغفرا، ذاكرا، خاشعا، سابحا، نادما. فما السّر في هذه المفاضلة؟ أليس من الأريحية أن يستقبل

هؤلاء بصدور رحبة ويحسوا على الأقل هاهنا بأنهم لا يتميزون عن غيرهم، والبقاع المقدسة تسع الجميع ولا تفرق بين هذا وذاك: بين الغني والفقير، المريض، الصحيح، القريب والبعيد، وبين المتعلم والأمي، الداني والقاضي، فالكلّ في ضيافة الرحمن وكان من الأحرى أن يستشعروا الدفء والأمان والمساواة والعمل أينما حلوا وارتحلوا بين ثنيا هذه الأماكن المقدسة.

فماذا حصل حتى يسكت عن إظهار الحقيقة ويحجب عن ذكر أسباب هذا التمايز في المعاملات بين الحجيج وفي هذا المكان بالخصوص والذي يفترض أن كل الوافدين متساوون هنا وأفئدتهم تهفو بالشوق والحنين لتلمس الحقيقة واليقين والعظمة الإلهية، والكل يتضرع لمحو ذنوبه. بل أكثر من ذلك راح صاحب الرحلة يسهب في إظهار هذه المفاضلة دون أن يكشف عن أسبابها، وغاياتها "وأمّا الطابقين العلويين فيكثر بهما الحجاج الميسورون فرادى أو مع أسرهم أو صحبة رفقة السفر"[8]. فنتساءل هنا كيف يكون موقف الحجاج الفقراء إزاء ما يرون ولما يعايشون ويلمسون؟! أفلا يمكن لهذا المنظر ولهكذا تصرفات أن يشوه المكان أو على الأقل ينتقص من القصد إليه، ويطعن في شخصيات القائمين على هذه الأمكنة.

وفي ثنايا الرحلة تنتابنا الحيرة مع التناقض الحاصل في نقل المشاهد، إذ نقرأ في موضع آخر أن هذا المكان المقدس يتساوى فيه الجميع وهو قبلة السلام والأخوة والمحبة والعدل. "هنا تجاور البشرة البيضاء الأشدّ بياضا من بشرة الأنجلوساكسونيين البشرات السمراء والصفراء والسوداء بمختلف لويناتها في أخوة تامة، الأمراء الأعيان، الأثرياء وفقهاء كبار وعلماء فطاحل في أسرار الحضارة الحديثة يجاورون دون عجرفة وفي منتهى المساواة البدو الحادي الطبع والسودانيين المساكين"[9]، فكيف يبرّر هذا الاعتراف ما ورد في المقطع السالف الذكر حيث يتجلى التمايز واضحا في إيواء الحجيج، ونعتقد أن هذا التناقض يزيد من معاناة القارئ إزاء هذه المواقف المتباينة، ومن جهة أخرى ينقص النص الرحلي موضوعية وصدقا وأمانةً.

وفي موقف آخر، رأينا كذلك بعد التمعن فيه أنه لم يستوف حقّه من البيان والتوضيح وهو ذكره لماء اللّورد.

ثالثا: سرّ ماء اللّورد

لقد أشار صاحب الرحلة إلى هذا الماء وكأن به تميزا فريدا. "صحيح أنّ ماء زمزم بالنسبة لبعض الحجاج موضوع قداسة مثلما هو أمر ماء اللّورد Lovrdes بالنسبة للمسيحيين يبعث

على الشفاء والمعجزات"[10]. فإذا كان القارئ العربي المسلم خاصة وحتى غيره أيضا يدرك قصة ماء زمزم الواردة في التراث الإسلامي، فلماذا سكت إتيان ديني عن قصة ماء اللّورد؟ ولم يفدنا بمعلومات عنه، أهو ماء مقدس عند المسيحيين؟ ما سرّه، ما هو مصدره، ما هي منافعه، بل بالأحرى ما هي قصته الأصلية، فلماذا يسلط السكوت عن ذكر أسرار هذه المياه، خاصة والرحالة فرنسي الأصل كان الأجدر به أن يضيء لنا أمر هذا الماء، علّ القارئ يستفيد ويدرك سرّ ذلك، كما أدرك سرّ ماء زمزم واطلع على قصته الأصلية حسب ما وردت في بعض الأحاديث النبوية الشريفة.

رابعا: السبّاحون وقطع النقود

وفي مسكوت آخر ألفيناه في هذا المقطع "بعد توقفنا بجبل طور (سيناء) وينبع مرسى المدينة حيث تحلق حول السفينة مئات السباحين لتلقي قطع النقود"[11]. ففي هذا القول كثير من الإبهام والمسكوت والمقموع، إذ أنّ صاحب الرحلة لم يذكر ولو بالإشارة أو بعض التفاصيل عن هذه الظاهرة، فنحن نتساءل بكثير من الحيرة والفضول عن أسرار هذه العادة أو تفاصيل هذه الظاهرة، علاقة الحجيج بالنقود؟ ولماذا الحجيج بالضبط ولماذا السباحين؟ وهل هذا التصرف عادة متأصلة قديمة أو مستحدثة؟ وما الغاية منها؟ وما موقف سلطة البلد من هؤلاء وأولئك؟ وهل هذا التراشق بالدنانير يتمّ في كنف الهدوء مع المسافرين أو يصحبه عنف؟ ما دام هذا الأمر تصحبه الأموال وفي فضاء مفتوح كالبحر، ولفظة "سباحين" مبهمة فلا ندري أَهُمْ من الأهالي أو من المسافرين أو من العابرين أو غيرهم؟ فالقارئ يطمح لمعرفة الكثير عن هذه العادة التي قد تسيء إلى البلد أو قد تزعج الحجاج المسافرين والعابرين، أو هي لقطة تضفي على المكان حيوية ونشاطا وتنسي الحجاج العابرين بعض عناء السفر، وهل يسمح للسفينة أن تبعثر النقود، نقود من لمن؟

خامسا: توجسّ إتيان ديني

وفي ثنيا هذا النص استوقفنا أيضا أمر آخر أشغل ذهننا ويتمثل في ذلك الشخص الغريب الذي أربك إتيان ديني ونغّص عليه بعض سفره وهذا عندما توقف الجميع للإستراحة وتناول بعض الطعام، أخذ يشكك في أمره إلى درجة إزعاجه بل أكثر من ذلك تخويفه أيضا. "في هذه اللحظة حدث حادث شغل بالنا، ذلك أن شخصا متشككا بعد أن تأمل ديني جيدا طفق يطرح أسئلة تغريرية، تصدى الحاج سليمان للإجابة عنها بهمّة"[12].

إنّ القارئ يتوقف هنا متسائلا عن هذا الشخص الذي هزّ مضجع ديني، أهو من عيون السلطة أو مسافر عابر أو مقيم أو من قطاع الطرق الذين سبق أن ذكرهم الرحالة في نصّه.. وقد تسلل إلى وسط الحجيج، أو من يكون؟ حتى أقدم على تعكير صفو الرحلة لإتيان ديني ممّا اضطر للتدخل وأخذ الأمر محمل الجدّ رفيقه سليمان بن إبراهيم، وإذ به يتصدى للأسئلة المزعجة الآتية من ذلك الشخص بحزم وعزم، فهذا المسكوت عنه يمكن له أن يبدد حيرة القارئ أيضا لو ذكر وقدمت فيه هوية ذلك الشخص.

إنّ نصوص أدب الرحلة تتوخى على الدوام ذكر الحيثيات والتفاصيل والظروف المحيطة بالسفر والأشخاص بمختلف وضعياتهم مرافقين كانوا أو مقيمين أو عابرين أو زائرين والغاية من ذلك لتقريب الصورة إلى ذهن القارئ حتى ليُخيّل أنه حاضرٌ فيها. "يمتلئ السرد في الرحلة الحجية بكم ملحوظ من المحطات السردية"[13]. فنحن نتساءل أين هذه المحطات التي كان بوسعها أن تنير كثيرا من جوانب الرحلة، فيقينا نبقى نتساءل من يكون هذا الشخص الذي تجرأ على إزعاج إتيان ديني، فلماذا السكوت عنه أو أنّه شخص خطير ومهاب الجانب إلى درجة تعذّر البوح بحقيقته وتقريب صورته إلى القارئ؟

سادسا: إجراءات الحكومة المصرية

ومن المقاطع المسكوت عنها كذلك في ثنايا هذه الرحلة ما أوحى إليه قوله: "بلغنا السّويس في السابع عشر من الشهر نفسه ومن ساعتها ونحن في قبضة الإجراءات الشكلية التي لا تنقضي والتضييقات التي تفرضها الحكومة المصرية على الحجيج"[14]. فالسؤال المطروح هنا لماذا يسكت ديني عن ذكر طبيعة هذه الإجراءات الشكلية التي تعرقل عبور الحجيج وفي دولة مسلمة؟ ولماذا لم يصرح خصوصا بتلك التضييقات التي ظلت الحكومة المصرية تقابل بها زوار البقاع المقدسة. علما أن رحلة هؤلاء روحية دينية،لا تمتّ إلى السياسة بصلة أم أنّ سلطة البلد تحسّست من بعضهم أمورا من هذا القبيل أو لدواعي أمنية، جعلتها تضيق الخناق عليهم. وهل للقارئ أن يعرف سرّ هؤلاء المسؤولين المصريين الذين يتصرفون بمثل هذا التصرف مع الحجيج الذين أقهرهم عناء السفر وويلات الطريق، فكان من الأجدر أن تسهّل لهم العبور وتيسّر لهم عناء السفر، وتبسط أمامهم الظروف الحسنة للاستقبال وهم في الطريق إلى زيارة بيت الله والارتماء في أحضانه.

إنّ هذا الفراغ السّردي يجعل القارئ أيضا في سؤال طالما، وأنّ أمورا كثيرة حجبت عنه، وكان بالإمكان ذكرها بأمانة دون أي حرج لتتألق الرحلة صدقا وموضوعية. ولعلمنا الخاص فإنّ أدب الرحلة ليس أدبا محضا فهو أيضا وثيقة تاريخية دينية واجتماعية ممّا جعل المؤرخين وغيرهم يعودون إليها باعتبارها مرجعا لا يستهان به، فهذه المسكوتات، قد تعيق بدورها الباحثين في التاريخ، حين تحدث الفجوات المعلوماتية.

سابعا: صلاة المغرب

ويَشُدّنا الانتباه أيضا إلى استفهام آخر أثاره هذا المقطع الوارد في النّص: "صلاة المغرب هي الصلاة التي يؤمها أكبر عدد من المصلين ليس في الأروقة فحسب بل حتى الساحة الفسيحة للمسجد تراها غاصة بالحجيج عن آخرها"[15].

والسؤال الذي يدور في أذهاننا لماذا يسكت مؤلف الرحلة عن ذكر أسباب هذه المفاضلة لهذه الصلاة عن غيرها؟ ولماذا التركيز على صلاة المغرب من دون الصلوات الأخرى، مع العلم أن كل صلاة في مثل هذه الأمكنة المقدسة تؤدى بحزم وعزم وبخشوع لا يوصف، يهرع إليها المصلون دون هوادة، فلا صلاة تعلو على الأخرى. ويقينا لا ندري ما السرّ في هذه الحشود المقبلة على صلاة المغرب دون غيرها إلى درجة امتلاء المسجد بل والاستعانة بأروقته وساحاته؟ ونحن نعلم وعلى تواضع معلوماتنا الدينية أن لصلاتي الفجر والعشاء خصوصيات تميزهما عن غيرها من حيث الثواب والأجر، ورغم ذلك ألفينا في هذا النص استقدام صلاة المغرب عنهما من حيث الأهمية والإقبال، فلماذا لم يقدم لنا الرحالة ديني بعض التفاصيل عن سرّ هذه المفارقة؟ خاصة وهي تؤدى في هذه الفضاءات المكانية المميزة والمحببة لدى المسلمين، إنها البقاع المقدسة، حيث يتسابق المصلون لأداء صلواتهم بتفان وإصرار تقربا لله تعالى وطلبا للمغفرة والثواب.

ثامنا: غياب فرنسا اقتصاديا

وفي محطة سردية أخرى استوقفنا مسكوت آخر، جعل القارئ في تساؤل وفضول، حيث ذكر لنا ديني ذلك الحضور الاقتصادي والتجاري لمعظم بلدان العالم في هذه الأماكن المقدسة، سيما في مثل هذه المواسم الدينية، ما عدا فرنسا، فهي غائبة في هكذا مناسبات. ورغم ذلك لم يكلف الرحالة نفسه الاستفسار أو البحث في أسباب عزوف هذا البلد تجاريا عن البقاع المقدسة، وفي مثل هذا الموسم "شاهدنا ماركات بلدان أخرى: أنسجة قطنية يابانية ومصبرات، فواكه أمريكية

إلخ... لكن ما يحزّ قوله هو أننا لم نصادف أية ماركة فرنسية باستثناء بعض عجلات ميشلان في حين أنّ فرنسا هي من أكبر القوى الإسلامية في العالم"[16].

ففي مثل الموقف نتساءل عن غياب هذا البلد (فرنسا) في موسم يعجّ بالناس من كل حدب وصوب وتنشط فيه العملية التجارية بكثافة، مع العلم أن فرنسا من أبرز البلدان تعاملا مع كافة شعوب العالم تقريبا في جميع المناحي. فلماذا لم يبحث في الأمر ويتحر فيه؟ وبذلك ينعتق من معضلة الحيرة التي تبدو قد انتابته ويظهر ذلك في قوله لكن ما يحزّ قوله، إضافة إلى تساؤل القارئ أيضا وحيرته. فأحال الأمر للقارئ علّه يتحرى في الأمر، ففي هذه الحسرة التي اعترته بسبب غياب وطنه عن هذا المحفل الاقتصادي، تظل أسباب العزوف مجهولة أو أن الرحالة عجز عن معرفتها أو تعمد عدم ذكرها.

إنّ النصوص الرحلية مدعوة إلى أن تقدم للقرّاء بعض التفاصيل الهامة والوظيفية منها خاصة فهي أشبه بالسيرة الذاتية أو الجماعية للأشخاص وكل ما فيها من معلومات وأخبار مهمة لا يجب تجاوزها. بل هي بمثابة أضواء تنير فكر القارئ وتمتعه أيضا "كذلك جاءت الرحلة خليطا من المعارف.. فكانت هي النص الوحيد الذي يستطيع أن يرضي كل الأذواق"[17].

فمن هذا المنطلق نستنتج أن النص الرحلي سفر في عالم الأخبار والمعلومات عن المكان والزمان والأشخاص والظروف المحيطة بها، سيما إن كانت الرحلة حجية "الرحلة الحجية إذا تتجاوز فقه المناسك لتصبح فضلا عن السابق نصا للإرشاد والوعظ والتفسير والتأويل"[18]. ومن خلال ذلك الكمّ المعلوماتي تطمئن نفوس القرّاء إلى مثل هذه السرديات، باعتبارها محطات تاريخية تؤرخ لكثير من الأحداث عرفتها الحياة البشرية، كما تشمل أيضا مختلف الجوانب اجتماعية كانت أم دينية أم اقتصادية أم ثقافية أو غيرها.

تاسعا: شهادة اعتراف

واستوقفنا أيضا بعض الغموض في قوله "حرم الكعبة استنفذ كل كامل اهتمامنا وسنقول الآن كلمة في حق مدينة مكة، الوصف المتقن الذي قدّمه السويسري بوركهاردت عن هذه المدينة يبقى دقيقا في مجمله ولن نبرّره. وسنكتفي بالإشارة إلى التغييرات التي حصلت بعد رحلته التي تعود إلى أزيد من قرن"[19]، ولماذا لم يذكر إتيان ديني ما قاله هذا السويسري عن بقعة مقدسة مثل مكة المكرمة! أليس من الأهمية بمكان أن يعرف القارئ شهادة أجنبي مسيحي سُجِلت في حق هذا

المكان العزيز عند المسلمين وحتى لبعض من غيرهم. ومن يدري أن شهادته تلك ستضيئ كثيرا من الجوانب الدينية والاجتماعية للغربيين، ومن جهة أخرى تزيد المسلمين اعتزازا وافتخارا بهذه الأمكنة التي تعبق بروحانية قلّ مثيلها في العالم! علما أن شهادة هذا السويسري يمكن لها أن تؤرخ لحقبة زمانية في تاريخ البشرية.

عاشرا: مسكوتات عابرة

ولاشك أنّ هناك بعض المقاطع تخللتها مسكوتات ولو عابرة، لكن القارئ من حقه أن يتساءل عن فحواها، ولعلّ حضورها يزيد النص الرحلي وضوحا وإفهاما ومعرفة، وفي اعتقادنا أيضا أن هذه المقموعات إن جاز المصطلح تعطي للرحلة انطباعا بأن بعض اشخاصها وقفوا في مأزق أو ورطة أو عجزوا عن البوح أو ربما مُنعُوا كما ورد في هذا النص، "لقد سمعنا خبرا أيأسنا.. الحكومة المصرية طبعا تحت ضغط أجنبي منعت حجاج المغرب كلهم من المرور على مصر؟"[20] فالسؤال المطروح، لماذا هذا المنع الممارس على الحجيج، ثم لماذا سلط ذلك حصريا على سكان المغرب دون غيرهم؟ سيما وأن الهدف واحد والغاية واحدة، ومسعى ديني مقدس، فكيف لمصر أن تضع مثل هذه العقبات لهؤلاء الوافدين لزيارة البقاع المقدسة لأداء أحد أركان الإسلام ألا وهو الحج، ألم يكن أحرى لصاحب الرحلة أن يتقصى الأمر وهو في عين المكان لينوّر النص والقارئ، فتتضح المعالم الرحلية أكثر، فمن ثمة يمكن أن نلقي المسؤولية بكل موضوعية، أعلى مصر أم على الذي حكم القبضة على مصر.

ثم قال في موضع آخر، "ولم يسمح لنا بولوج القناة إلا بعد الزوال؟"[21] دون أن يفيدنا بالأسباب لذلك هل هي سياسية أم دينية أم أمنية أم لدواعي أخرى سكت عنها.

وفي موضع آخر أشار صاحب الرحلة قائلا: "أخذ الملك مكانه عند ركن السطح وألقة خطبة لا تشبه في شيء تلك الخطب التي تلقى في الغرب عقد المآدب السياسية"[22]، فلماذا السكوت عن ذكر طبيعة هذه الخطبة التي تتميز عن سائراتها، ثم ما ذا ذكر فيها وعلى ماذا أكدّ وممّ حذّر وبم أوصى خاصة وأنها صادرة من سلطان هذا المكان، فتملكنا الفضول لمعرفة خصوصية هذه الخطبة، لكن تأجل الإخراج عن المسكوت عنه.

كما أشرنا إليه سالفا هذه بعض النماذج عن المقاطع السردية المسكوت عنها في هذا النّص الرحلي، ولقد وقفنا عند أهمّها وأكثرها إغراءً للقراء على الأقل في نظرنا، لكونها تخفي نقاطا أو

معالم جديرة بالذكر لإثارة شهية القراءة والمطالعة والاستفادة والاستكشاف. مع قناعتنا الراسخة أن صاحب الرحلة قدم لنا إحدى الصور الصادقة والحية عن ظروف السفر إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج في هذه الفترة الزمنية من عمر التاريخ ألا وهي 1929 في الثاني أفريل. إذ وبعد اعتناقه للإسلام عن حبّ وقناعة أبى إتيان ديني إلاّ أن يكمل إسلامه بهذه الرحلة الروحانية ليلبي داعي الله، مؤديا فريضة الحج، ومن ثمّة سمي بالحاج ناصر الدين إتيان ديني.

واستطاع بذلك أن يؤرخ لمشاعر المحبة والإخاء والإنسانية السامية، فمن بوسعادة انطلق وإليها رجع بعد استكمال شعائر الحج ليرقد إلى جوار ربه إلى الأبد في ثنايا مدينة بوسعادة، المدينة التي كانت مصدر إلهامه الأدبي والفني والديني والواحة التي تفيأ بظلال عشقها وخصها بفنه الكبير وروائعه الخالدة.

ومن جانب آخر تعكس لنا هذه الرحلة رغم بعض الفراغات التي توقفنا عندها إدراك ديني بحسه الجمالي الرفيع ويقين عقله المتنور بأن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت طافحة بالدروس والعبر. وتنقل لنا هذه الرحلة أيضا المفاهيم الصحيحة لكسر الأغلاط الشائعة في أوروبا عن الحج إلى البقاع المقدسة. كما يمكن اعتبار هذه الرحلة نموذجا لحوار الحضارات ودعوة إلى وئام صادق بين الأديان السماوية.

هوامش:

* ألفونس إتيان ديني (1861-1929) مستشرق فرنسي شهير، عاش في بوسعادة أزيد من ربع قرن وبعد اعتناقه الإسلام سمي باسم "ناصر الدين ديني".

[1] ناصر الدين ألفونس إتيان ديني والحاج سليمان بن إبراهيم باعمر، الحج إلى بيت الله الحرام 1347هـ-1929م تر: عبد النبي ذاكر، مطبعة أنفوبرنيت، (المغرب)، ط1، 2006، ص ص 5- 9.

[2] المرجع نفسه، ص 26.

[3] عبد النبي ذاكر، بلاغة المحو في رحلة ابن بطوطة، مطبعة أنفوبرينت، (المغرب)، ط1، 2013، ص 3.

[4] المرجع نفسه، ص 104.

[5] بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق، دراسة في إنتاج النص الرحلي، رحلة ابن فضلان نموذجا، مطبعة صناعة الكتاب، (المغرب)، ط1، 2007، ص 149.

[6] سميرة انساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، (الجزائر)، 2009، ص 193.

[7] ناصر الدين ألفونس إتيان ديني والحاج سليمان بن إبراهيم باعمر، المرجع السابق، ص 46.

[8] المرجع نفسه، ص 46.

[9] المرجع نفسه، ص ص 65-66.

[10] المرجع نفسه، ص 63.

[11] المرجع نفسه، ص 24.

[12] المرجع نفسه، ص 30.

[13] عبد الرحمن مودن، الرحلة في الأدب المغربي، النص، النوع، السياق، إفريقيا الشرق (المغرب)، 2006، ص 21.

[14] ناصر الدين ألفونس إتيان ديني والحاج سليمان بن إبراهيم باعمر، المرجع السابق، ص 23.

[15] المرجع نفسه، ص 45.

[16] المرجع نفسه، ص ص 72-73.

[17] المرجع نفسه، ص 61.

[18] المرجع نفسه، ص 19.

[19] المرجع نفسه، ص 71

[20] المرجع نفسه، ص 100.

[21] المرجع نفسه، ص 105.

[22] المرجع نفسه، ص 100.